فصلية اللسان المبين (بحوث في الادب العربى)
محكمة عليها
السنة الثالثة، المسلسل الجديد، الرقم الخامس، خريف ۱۳۹۰

آليـّات التفكير اللغوية عند أبى تمّام*
(فى ضوء المستويات الأربعة لعلم الدّلالة)

الدكتورحميد رضا مير حاجى
أستاذ مساعد فى جامعة علامه طباطبايى
الدكتور جلال مرامى
أستاذ مساعد فى جامعة علامة طباطبايى
مالک عبدى
طالب مرحلةالدكتوراه فى جامعة علامة طباطبايى

الملخّص

حديثنافى هذه المقالة عن أبى تمام ومدى اضطلاعه بأمرالدلالة للمفردات والجمل، واهتمامه بأنماط الاستخدام الوظيفى للكلمات، بحيث يصبح للكلمة من خلاله أدق مايمكن أن يكون لها من تأثير و دلالات لم تكن لتفيدها إن كانت مسوقة على نحوآخرَمن أساليب الأداء و أنظمة التأليف. وهذا مافعله الطـائى فى مواطنَ كثيرة من شعره، ممّا جعلنا نستعرضُ فى هذه الدراسة مجموعةمن أبياته ونتناولها بالدرس الوظيفى– الآليـّاتى، إلاأنّنا لسنا – فى دراستنا هذه – بصددالحديث عن خصائص شعره عامّة، كماهوالمعتاد فى مثل هذه الدراسات. ولكنّ حديثنا سيكون عن خصائص شعره اللسانيّة والآليّات اللغويّة التى استخدمها للدلالة على مبادئه الفكريّة والعقليّة وتصويرها تصويرًا دلاليًّامُمتعاً؛ اذإنّ لكّل شاعرأسلوباًخاصّاًيتميّز به وسماتٍ تفكيريّة وتعبيريّةيتّسم بها، وليست هذه الأساليب والسّمات إلّاأفكاراًوتأمّلاتٍ يسكبها الشاعرفى قالب الصّور الشعريّة التى يولّدها. إذن سيكون محور بحثناو تركيزنا فى هذه الدراسةعلى هذه الناحيةمن شعرأبى تمام وإلقاء نظرةدلاّلية –آليّاتية على مقاطع من شعره فى إطارأربعة مستوياتٍ لهذا الأمروهى المستوى الصوتى، المستوى الصّرفى ، المستوى النحوى أوالتركيب، ومستوى المفردات أوالمستوى المعجمى ، أو لعلنانتمكّن بذلک من الحصول على مفاتِحَ وتلميحاتٍ من نحو أدائه الآليّاتى ونتمكّن من تبيين زوايا من جماليّات شعره فى حوزة الدراسات اللغويّة هذه.

الكلمات الدليليه
أبوتمام، اللغه، علم الدلاله، الاستخدام الالياتى.

---

* – تاريخ الوصول:۱۳۹۰/۰۲/۱۸ تاريخ القبول : ۱۳۹۰/۰۶/۲۶
عنوان بريد كاتب الإلكترونى:Mirhaji-sayyed@ yahoo.com

۱- مقدمة

أبو تمام- و كما يعرف الجميع- شاعر كبيريحتّل العقل و التفكير عنده مكاناً مرموقاً و يطغى العقل على جميع قواه فی غالبية الصور الشعريّة التی يولّدها و يقوم بإنتاجها، إذ يُولی العقل اهتماماً بالغاً ويراه عامل فخرٍ رفيعاً لا يتسنّی إلا لافرادٍ قليلين، إذ يدّل على هذا المعنی بقوله :

وليس يُجَلّی الكرب رمحٌ مسدّد إذا هو لم يُؤنس برأی مُسدّد

(الخطيب التبريزی، د. ت، ج ۲: ۲۷).

ومعناه أن الرماح العوالی والسيوف المواضی ليستا تُجديان نفعا، مالم تستندا إلی رأی متين و محكم يُسدِّدُهما ويصوِّبهما نحو العدوّ الغاشم ... ويُقيم كذلک علاقةً واسعةً بين العقل و التفكير و معظم ما يخالج صدره و يطرق أبواب ذهنه من مفاهيمَ و صُور، لأنّه كان بذالة يمتاز بذكاء حادّ نادر و ألمعّية و ثقافة واسعتين حصّلهما جرّاء تطوافه فی البلاد و اكتسابه للتجارب العقليّة ذات القيمة الكبری. وقد ظهرت آثارتلک الثقافة فی شعره، فكثرت المعانی الجديدة والأدلّة العقليّة و ائتمام المنطق فی التفكيروالتأليف (حنّاالفاخوری،۱۳۸۰: ۴۹۴). إذن هو من الشعراء الذين يستقصون المعانی لدرجة إبهامها و استغلاقها وعدم فهمها ممّا جعل المذاهب الأدبيّة والنقديّة تتشابک حوله و تختلف فی تقويم فنّه، ففريق يُناصره ويُعلی من قدره و قدر فنّه، و يتغاضی عن مساوئه و سقطاته و آخرُ يناهضه و يقاومه و يجسّم أخطاءه و يغفل جيّده و عالیَ فنّه لا لشیءٍ سوی الحسد أو العصبيّة (محمّد بركات أبوعلی، ۱۹۸۲ :۹)؛ فمن المتعصّبين ضدّه ابن الأعرابی الذی قال —حين أنشد شعراً لأبی تمامٍ :إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل (أبوبكر الصولی،۱۹۸۰: ۲۴۴).

وأمّامن المتعصّبين له فابنُ المعتزّ الذی يقول فی المفاضلة بين البحتری و الطائی:«وذلک البحتری لايكاد يغلظ لفظه، إنّما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأمّا أن يشقّ غبار الطائی فی الحذق فی المعانی و المحاسن فهيهات بل يغرق فی بحره، علی أنّ للبحتری المعانیَ الغزيرة، ولكّن أكثرهامأخوذ من أبی تمام مسروق من شعره». (ابن المعتّز،۱۹۳۵: ۲۸۶)؛ وأما من بين هؤلاء النقاد المختلفی الآراء يوجد من حكموا حكماً صالحاً فنّيا بشأنه، نابعاً عن عمق فكرة و دقّة فهم لفنون الشعر وأساليبه، منهم أبوالعباس المبّرد الذی عَرَف فنّ أبی تمام فی شاعريّته وفَهِم طريق المفاضلة بينه وبين البحتری علی أساسٍ من المقارنةالموضوعيّة العلميّة السليمة، و يكشف لنا —من خلال تقييمه بهذا الشأن —عنً مقدرته فی النقد المنصف و كفاءته العلميّة فيه، و ذلک فی جوابه علی سؤال عبداللّه بن الحسن بن سعدان عندما سأله عن أبی تمام و البحتری و أيّهما أشعرُ؟ فقال المبّرد: لأبی تمام استخراجات لطيفة و معانٍ طريفة لا يقول مثلها البحتری، و هو صحيح الخاطر حسن الانتزاع، و شعر البحتری أحسن ًاستواء، وأبوتمام

يقول النادر والبارد...و ماأشبّه أباتمامٍ إلّا بغائص يخرج الدّر و المُخشلبة[١] (الصّولى، ١٩٨٠: ٩٦)؛ و هذامن أثمن النصوص الموجودة وأرقاها فنّاً فى التراث، فى التفاضل بين فنَّى الشاعرين فى التعبير، ولعّل قول البحترى نفسه بشأن هذاالتقويم أظرف ممّا قاله المبرّد، وهوأهدى إلى سبيل الشاعرين من حيث تبيين أنما طهما الأدائية للمعنى، وهو قوله عندما سئل عن أبى تمامٍ و نفسه :جيّده خير من جيدى و رديئى خيرٌ من رديئه! (الصولى،١٩٨٠: ٧۶، وابن المعتز، ١٩٣٩: ٢٨۶).

وأمّاخطّةالبحث فى هذه الدراسةولبنتها الأولى والأساسّية فيها فستكونُ التطرّقَ إلى المواضع التى أراد فيها الطائى أن يثير فكرةً لدى مخاطبه و يستفزّ بها مشاعره، وذلک عبر استخدام الآليات الصرفيّة و النحويّة و المعجميّة و المؤثرات الصوتيّة والتنغيميّة التى اختارها لبيان تلک المفاهيم و الرّؤى الفكرية وبلورتها فى قالب العمل الشعرى، وهى من مستويات علم الدلالة التى يُستعانُ بها على تحليل النصوص الأدبيّة، ليُعلم من خلالها المعانى المستحدثة التى قديُحدثُها كلامُ و يعجزعنها كلامٌ آخر، و هذا هو وظيفة علم الدلالة المندرج فى غضون هذه المستويات الأربعة التى اخترناها لدراسة شعرأبى تمام لننظركيف كانت حصيلة جُهده فى اختيار هذه الآليّات و هل كان صاحبَ إنجاز فيه أم إخفاق؟ ولِنبحث كذلک عن الأبعادالدلالية للغته، ومنهجه فى التفكير الدلالى، و نعنى به أنه كيف استطاع أن يُبَلورفكرته فى قالب دلالىّ رصين من قوالب اللغة السيمنتيكية، ليعبّرعنهاباًحسن تعبير؛ لأن للغةَ الطبيعية بُعدَها الدلالى الذى تتميزبه وتفارق ُبه غيرَهامن أنواع العلامات. و هذا هو قابلية العلامات اللغوية للدخول فى علاقات مكوّنةجُملاً، ثمّ قابليتها بعد ذلک للتنامى بالجمل لكى تكون نصّاً. إن للغة الطبيعية أجروميّة (انتظاماً، هندسةً، تركيباً) خاصّة تفتقدهااللغات السيميوطيقية(العلائميّة/العلاماتية)...وهذامعناه أن للغة الطبيعية بعدها السيما نطيقى الذى تستعيره أنظمة العلامات الأخرى...(نصر حامدأبوزيد، ٢٠٠٨: ٨۶).

وأما الأهميّة التى كان متسماًبهاهذا البحث والتى دفعتنا نحو إنجاز هذا العمل فهوأن أحداًمن قبلُ لم يكن_على مارأينافى الكتب المطبوعة بهذا الشأن_مهتماًبالجانب الدلالى لشعرشاعرعلى وجه التطبيق الوظيفى هكذا، ولَم نرَمن بين المؤلفات الموجودة فى هذا المجال جهوداًمنصبّة على نحوهذا العمل الآليّاتى فى حوزة الأعمال الشعريّة لشاعرما، وإنماالأعمال التى تمّت بهذا الشأن تكون محصورة فى دائرة التحليل التنظيرىّ العامّ لهًذه المستويات و دراسة الجذور التاريخيّة لها، من دون عرضها و تطبيقها على منصّة أعمال الشعراء، أوتكون _فى حالة أبعدَمن ذلک_مرتكزة على التحقيق بشأن طائفة عامة من أقوال الشعراء المختلفين وتحليل آيات من القرآن على ضوء هذه المستويات من دون تضييق دائرة

البحث فی إطارشاعرمعيّن؛ ولذلک يبدوأن تحقيقنامن هذاالمنطلق يکون هوالفريدالمحدّدمن نوعه، المقصورعلی ناحية البحث عن الأبعاد الدلاليّة لدی شاعرمحدّداخترناه لهذا التحليل وها هوأبوتمام الطائی. وإنما يأخذ التحقيق فی أهميّة أکثرعندماً عَلِمناأن شاعرناهذا_علی ماسبق_يکون من الشعراء التفکيريين الذين يتحَرَّون الحقائقَ المکنونة فی باطن الأشياء و يتمسکون، أويُحاولون التمسّک بالأساليب التعبيرية الدلاليّة التی تکون أکثر توافقاًو انسجاماًمع المنظورالشعری الذی يريدإلقاءَه، ولذافيکون من المهمّ عندناأن نَفطِن إلی دقائق هذه التعبيرات التی أبرَزَت نفسها فی قالب تلک الآليّات التی انتقاها الطائی لبيان فکره.

وأما الأسلوب أو الطريقة التی سنتخذها لتطبيق هذه الدراسة والتی سَنُزمِعُ من خلالها الوصول إلی مواضع هذا التوظيف الآليّاتی لديه فهی أن نختار بيتاً من أبياته ذات الدلالة النحويّة أو الصوتيّة أو...ثمّ نقوم بعد شرحه بالبحث عمّافيه من دلالات النحو و الصرف و اللغة والموسيقی وآليّاتها التی سخّرها الطائی للدلالة علی مضمونه الفکری فی ذلک البيت، والتی تتفوّق علی نظائرهامن الآليات الأخری فی قدرتهاعلی تمتين التعبير، فإذا سلّمنا مثلاً بتفويق آليّة «إذا» الشرطيّة الزمنيّة علی نظيرتها «إن» فسنستدلّ بالأدلّة التی تسوقنا نحو ذلک التفويق، وسنبيّن بواسطتها مکانة تلک الآليّة و دورها الدلاليّ الفعّال فی تجسيم ذلک المعنی، المکانة التی تَعدمها مثيلاتها. وعلی هذا الدرب سنسير فی تحليلنا لأبيات أبی تمام. والجدير بالذکر أننالسنا فی هذه الدراسة علی صدد توسيع البحث وتعميم أرجائه إلی حيث يضمّ عدداً کبيراً من أبيات ديوانه، إن هذاممتنع مستحيل، وإن هذه الدراسة لاتتّسع لأن نُکثّف عدد الأبيات المدروسة فيهاکَمّاً، فالغرض المنشود فيها هودراسة عدد محدود من أبياته، والأهمّ من ذلک أن تکون دراسة هذه الأبيات القليلة مفتاحاً للبحوث الآتية، أو تلميحاً و خطوةً نموذجيّة لمن يريد خوضَ البحث موسَّعاً فی مثل هذه المجالات.

وأما الأسئلة التی سنکون علی صدد البحث عن إجابات لها من خلال دراستناهذه فهی أولاً:هل کان لأبی تمام_کشاعرتفکيری_نهجٌ أوأنماطٌ بَرمَجية دلالية فی بعض مناحيه الأدائيّة من خلال توظيف الکلمات و الأساليب النحويّة فی الموقع الدلالی الذی يليق بها؟ وثانيا:إذاکناعددناه شاعراًمعبراً_تعبيراًوظيفياً_عن فکرته بمعونة هذه الأساليب، أکان ناجحاً فی إبراز هذه الأفکارفی حلية هذه الأساليب اللسانية المتوفرة لديه، أم لم يکن ذانجاحٍ فيها؟ والثالث:هل هناک من مآخذ أوملاحظاتٍ علی شعره فيمايتعلق بدراسة أبياته علی مدارهذه الآليات، وهل هناک من مواضعَ فی شعره کان باستطاعته أن يستمدّ فيها بآليّة أقوی ممّااستخدمهافی بيته من خلال الأبيات القلائل التی سنستعرضهافی هذا المجال؟ وهذه هی مجمل الأسئلة التی سنکون علی صدد الإجابة عنها فی هذه الدراسة الوجيزة، مع التنويه بأن النتيجة التی سنتوصّل إليه تکون صالحة للحکم بهاعلی مجموعة الأبيات التی اخترناها فی

هذه الدراسة، أوتعميمها إلى سائر الأبيات المشابهة لها المتناثرة فى ديوانه.

٢- المستويات الدلاليّة الأربعة

قبل الورودفى موضوع المستويات الدلالية لابدأن نتكلم باختصارعن علم الدلالة؛ تعريفه وموضوعه. وأماتعريفه فهوالعلم الذى يدرس المعنى. وموضوعه فهوكل شيء يقوم بدورالعلامة أوالرمز، ولكن تركيزه على اللغة من بين أنظمة الرموز. ونحن باعتلارأننانريدأن نحدّدمعنى الحدث الكلامى لابدّ أن نهتمّ بهذه الجوانب والمستويات التى سُمّيَت بالمستويات الدلالية الأربعة (أحمدمختارعمر، ١٩٨٨: ١١-١٥).

٢-١- مستوى الأصوات:(phonology)؛ ويدرس هذاالمستوى أصوات اللغة من ناحية طبيعتهاالصوتية مادة خاماًتدخل فى تشكيل أبنية اللفظ، ويدرس كذلک وظيفة بعض الأصوات_من مخارج الحروف و صغاتها و الإيقاعات المتفاوتة التى تفرزهابطبيعة أدائها والنطق بها_ فى الأبنية و التراكيب، ويدخل هذا كلّه تحت عنوان ما يُعرف بمستوى الأصوات أوعلم وظائف الأصوات(phonology) وهودراسة وظيفة الصوت اللغويّة فى الكلام، عن طريق زيادة فى الكلمة مثل العناصر الصرفيّة، ومن ناحية تقسيم الكلمة إلى مقاطع صوتيّة، وصفات كَلّ مقطع، أو عن طريق أدائه صوتيّاً، و ما ينتج عن ذلک من نبرٍ و تنغيم و وقفاتٍ و طبقة الصوت، و كذا كلّ المؤشرات الصوتيّة الأخرى التّى تشارک بنوع فى الدلالة؛ و على هذا نصّ أبو الفتح عثمان بن جنّى عندما رأى أنّ هناکُ أصواتاً أقوى فى المعنى من غيرها حيث قال فى خصائصه:و كذلک لها [أى الكلمات] دلالةٌ تميّزهاعن قسيمتهافى معظـم الأصـوات مثل: «قضم» و«خضم»؛ فـ«قضم» تستخدم فى اليابس و«خضم» فى الرّطب ، وذلک لقوّة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الحرف الأقوى للفعل الأقوى والحرف الأضعف للفعل الأضعف(ابن جنّى،١٩٨٩ :٦٥)؛واستشهد كذلک ابن جنّى على قوله هذا بلفظتَى«النضح» و« النضخ» والنضح للماء و نحوه والنضخ أقوى من النضح من قولهم :نضحَ عليه الماءَ و نضح البيتُ بالماء نضخاً وهو الرّش؛ وعينٌ نضّاخة: فوّارة بالماء وغيثٌ نضّاخ: غزير و أرسلتِ السماءُ نضخاً وأصابتهم نضخةٌ من مطر(الزمخشرى،٢٠٠١ : ٧٥٧)؛و قال سبحانه و تعالى فى سورة الرحمان: فيهما عينان نضّاختانِ{الرحمان:٦٦}؛ فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الضعيف و الخاء لغلظتها لما هو أقوى منه. (ابن جنّى،١٩٨٩: ١٥٨)؛ فإليكم الآن الأبيات التّى سيتمّ عرضها و دراستها فى إطار هذا المضمار:

يقول فى مدح أبى دُلف القاسم بن عيسى العجلى و هو يصف جوده مبالغاً فيه :

تكاد مغانيه تهشّ عِراصُها فتركبُ من شوق إلى كلّ راكبِ

(الخطيب التبريزى، د.ت، ج١: ٢٠٤)

والعِراصُ: جمع عَرصَة، وهی ساحة الدار، و استعارلها «الهَشَاشة» التی هی البشر والأريحية؛ يقول: من شهوته لإعطاء المال و بذله، تكاد عِراصُ مغانيه تسير إلی من يسير إليها، طالباً نيله. والّذی يُعجبنی فيه –من الناحية الموسيقية اللفظيّة فی الكلمة الواحدة – هو قوله فی«تهشّ» الّتی برزت فيها فنّانيّته وقدرته علی الإبداع الموسيقی،إذ هی مؤلفةٌ من حرفين يؤدّيان من منطلق أداءهما الموسيقیّ، شحنة إيقاعيّة مُثيرة قلّما تفيدها مثيلاتها من الأحرف الأخری ، و هما حرفا «الهاء» و«الشين»، حيث إن الهاء من أحرف الحلق وهويتّصف بصفتـَی « الرخاوة» و «الانفتاح» من باب صفات الحروف الموسيقيّة – الأدائيّة ، والرخاوة هی ضدّ الشدّة و هی بمعنی«السهولة و اللّيان» و من خلالها يَجری الهواء أو الصوت بجَری و سلاسة فی أقصی الحلق(موسوی بلدة،۱۳۶۹ : ۵۱و۵۲)؛ والانفتاح هی ضدّالإطباق وهی تعنی الًانبساط والاتّساع فی الصوت خلال أداء الحرف من مخرجه (نفس المصدر ،۱۳۶۹ : ۵۵) ؛ وأمّا «الشين» فهی متّصفة أيضاً بالصفتين الماضيتين ، بالإضافة إلی صفة « التفشّی» التی هی بمعنی الانتشار و التفرق للهواء فی جوف الفم ، أثناء النطق بهذا الحرف ، و هی مختصّة بالشين وحدهامن بين جميع حروف الهجاء(نفس المصدر : ۶۰) ؛و كلا الحرفين –الشين و الهاء –مهموسٌ كذلک و «الهمس» أيضاً من منظورالأداء الموسيقیّ والإنتاج الصوتی تعنی الهدوء والتستّر و الاستخفاء أثناء النطق بالحرف (نفس‌المصدر:۵۰)؛ فوفقاًلمابينّامن دلالات أحرف هذه الكلمة فی توليد الموسيقی الدالّة علی المعنی ، يتبيّن لنا مدی قوّة هذه الكلمة و إيحاءهافی إفادة المعنی الذی تتضمّنه،وهوأنّ عطايا هذا الممدوح لاتقف عند الحدّ الذی يسخو فيه الممدوحُ للطالبين والعُفاة، ولا تقتصر كذلک هذه العطايا علی قيام الممدوح وحده فقط بفعل الاحسان، بل تتجاوزه إلی ما يجاور هذا الممدوح و يتعلّق به من أماكن اقامته و الأرض التی تطؤها ، فهذه المساكن و المغانی قد ترث الجود أيضاً من يد هذا الممدوح، فتصبح راغبةً أيضا فی عطاء السائلين،لكنّها لا تبقی ثابتة ذات قرارٍ فی مكانها، بل هی من قلّة صبرها علی رؤية إملاق المقلّين و حوائج الطالبين، لا تنتظر حتیً يطرق المحتاجون أبوا بها، بل هی تسبقهم و تسير اليهم حشوداً مكثفة بسير حثيثٍ مُسرع ذی اتّساع وشمول، وهذا التصّرف من قِبَل هذه المغانی دائمٌ لاانقطاعَ فيه و لابُطءَ. و كلّ هذه المعانی التی عددناها لهالاتُستفادإلّامن دلالات أحرف هذه الكلمة الإيقاعيّة،وكان بإمكانه التعويض عن هذه اللفظة بفعل«يزفّ» ثلاً،بنفس الدلالة و الإيقاع،كما فی قوله تعالی فی سورة الصّافات المباركة،الآية۹۴حيث يقول فيه تعالی : ﴿فأقبلوا إليه يزفّون﴾أی: يُسرعون(الراغب الإصفهانی،۲۰۰۷ :۲۱۸)؛ولكنّه عمَد إلی ترجيح هذه اللفظة لِما فی «الهشّ» من مَعانٍ أُخَر ، منها التكسّر والتساقط من قولهم :هشّ الشیء:دقّ و جفّ حتی أصبح قابلاً للكسروً هشّ العودُ: تكسّر (ابراهيم مصطفی و آخرون،۱۹۸۹: ۸۹۷)؛ و شیءٌ

هشّ: رخو ليّن و فرشَ هشّ: غير صلود، وإنّه لَهَشّ المكسرِ:سهل الجانب إذا سُئل (الزمخشرى،۲۰۰۱: ۷۹۷)؛ والهَشاشة بالفتح: الا رتياح والخفّة للمعروف، وقد هشّ به يهَشّ بالفتح هَشاشة: إذا خفّ اليه و ارتاح له، ورجلٌ هشّ ٌبَشّ ٌ(محمّد بن أبى بكر الرّازى، ۲۰۰۶: ۵۶۹) ؛ و«الزّفّ» لا تفيد أيّاً من هذه المعانى، وإنّما تقف دلالته عند حدّ الإسراع و المبادرة، ولذلک تبدوهذه اللفظة [تهشّ]من أروع الألفاظ التى انتقاها الطائى لهذا المعنى و أوفـرها إيحاءً.

ويقول فى قصيدة يمدح بها آل عبد العزيز بقزوين، ويصف فيها الإبلَ التى تحمله اليهم:

تجشّـمتُـه بـالـدّاعِرِيّـة تعتـلى　　　　بهـا رَتَكَانٌ أو ذميلٌ تـُواعـدُه

(الخطيب التبريزى، د.ت، ج۴: ۶۲۹)

والرَّتَكان هوعدوٌ فى مقاربة خَطو و إبل ونعام رواتکُ، وقد رَتـَک البعيريرتک رتکاناً، وهى مشية فيها اهتزاز و قد يستعمل فى غيرالإبل، وهى فى الإبل أكثر(الزمخشرى،۲۰۰۱:۲۵۸). إذنْ ماأراده الطائى فى وصف إبله هذه هوأن هذه الابل التى تحمله اليهم سريعة المشى خفيفة الجرى جدّا، ولا يتوقّف راكبُـها عن الاهتزازلكثرة مابهامن خفـّة ونشاط وترَجرُج أثناءَجريها،ولم يرَالطائى للدلالة على هذا المعنى من الهزّة و الاضطراب أحسنَ من أن يختار ًالمصدرالذى يأتى فى أصل بناءه للدلالةعلى التقلّب و الاضطراب و الحركة مثل جَوَلان، وغَلَيان،و سَيَلان،وفَيَضان وغيرها...ومن دلالاتهاأيضاً،الدلالة على حالات المرض والعلّة كالوَهَجان والغَثـَيان و اللَّهَبان؛ وهى أيضاً كلّها حالاتُ اضطراب و تقلّـب مَرَضىّ يصيب الإنسان، فنلاحظ أن هذا الوزن يُحاكى الحدث ويعبّر عنه تعبيراًدقيقاً، فهو يحمل فى مضمونه دلالة الحركة الشديدة(عكاشة،۲۰۰۵: ۶۹)؛ وعلى هذا فلمّا أراد الطـائى أن يعبّرعن شدّة جريهاوهزّتهافيها،مالَ إلى اختياراللفظةالتى تصوّرلناهذه الحركة و الاضطراب بوضوح أكثر جدّاً بتوالى ثلاث فتحاتٍ على أحرفها الأ ُوَل، والفتحةهى أخفّ الحركات، وهى أكثرها شيوعاًو انتشاراً فى الأسلوب القرآنى، حسب الإحصائية التى قام بها الدكتورإبراهيم أنيس والتى وجدفيهاأن هذه الحركة هى الأكثرشيوعاًفيه،لأن به [أى بهذاالأسلوب القرآنى]حوالى ۱۰۷أفعال ماضياتٍ صحيحاتٍ تكون صيغتها «فَعَلَ» بثلاث فتحات، وحوالى۲۴ فعلاًمن صيغة«فَعِلَ، بكسرالعين(أنيس،۱۹۸۵:۵۲). و يؤكد هذا قبله سيبويه بقرون كذلک أن صيغة«فعَل» بثلاث فتحات هى أكثر وروداً فى الكلام من غيرها، و ذلک بقولِه:«وإنماكان فعَل كذلک لأنه أكثرفى الكلام،فصارفيه ضربان،ألاترى أن فعَل فيما تعدّى أكثرمن فعِل،وهى فيمالايتعدى أكثر،نحو قعَد وجلَس». (سيبويه،۱۹۷۷: ۱۰۴).وذلک أن الفتحة صوت ليّن

قصيرمتسع، وهی للدلالة علی مواضع الخفة والهيجان والنشاط فی الكلام أنسَب، فالخفة فی النطق واللسان، تأتی للخفة فی الحركة والعمل، وقد سَرت الخفة و الحركية و السلاسة من الفتحة إلی سيرالإبل، وهذامافعله الطائی فی كلامه هذا عن سير هذه الإبل، واختيار اللفظة التی وقعت هی بفتحاتها، ثم تلاقيها بألفٍ ممدودة بـعدَها، أكثرمناسبة مع الخفة التی تنتجها هذه الناقة فی سيرها إليهم. أفلسيت هذه كلّها تدّل علی مدی هذه السرعة والامتداد فی السـير و تصوّرها لنا بأجلی تصوير؟! فكأنّ لفظة«الرتكان» هی بنفسها ابلٌ تسير سيراً حثيثاً.

ويقول كذلک فی قوله فی وصف ناقة سريعة السيّر:

أوَ مَا تَراها –مَا تَراها –هِزّةً تَشأی العُيونَ تَعَجرُفاً و ذَمِيلا

(الخطيب التبريزی،د.ت: ۶۹)

والذی نبحثه فيه هوقوله فی كلمة«تعجرفاً»، إذإنهاكلمةٌ عديمةُ الرونق والبهاء والطلاوة اللفظيّة، بل إنهاكلمة ثقيلة جافّة لدی السّمع، غيرمتّسقة التركيب الأحرُفی لاحتوائها علی مجموعة من الصفات الصوتيّة متعارضة، مابين مهجورة ومهموسة ومستعلية و مستفلة، فهی كلمة ذاتُ تنافر و ثقل وغِلَظٍ بين أحرُفها، ولكن الطائی فی هذاالمجال رأی الموقفَ رأی الموقفَ دائراًفیً وصفً نشاط الناقة و قوّتها فی السير، فانتقی لها (لهذه القوّة والصلابة فی السير)كلمةً غليظةً صُلبةَ التركيب الأحرفیّ ليدّل بها علی تلک الهزة و الصلابة والقوّة الغاشمة التی تَحظَی بهاتلک الناقة فی جريهاأحسن دلالة،كأن بهاخُرقاً[۲] وقلّةَ مُبالاة لسرعتها...؛وفی البيت نفسه ومن منظورالنحوودلالاته التنغيميّة الصوتية أيضاًقدأحدث مفاجَأةً نحويّة موسيقيّة بِنِـيَّـتِـه السَّكتَ أوالوقفة القصيرة علی جملة«ماتراها» الأولی من باب التحفيزو الحثّ علی عمل الرؤيةعن طريق الاستفهام التحضيضیّ المُفخَّم،ثمّ البدأ أو الاستئناف بجملة«ماتراها» الثانية علی سبيل التـعجيـزو النفی التخييبیّ للمخاطب،فلانتنبّه إلی دورهذه الجملة المكرّرة الثانية فی النحو الا بأخذ النظرإلی الملاحظات النغميّة الموسيقيّة التی يجب أن نُعمِلهافی سياق العبارة عند قراءتها، ولولاهذه الميزة الموسيقيّة النبريّة أوالتنغيميّة لديه فی سياق تركيب نحویّ لَماأفاد البيت بمؤدّاه الدلاليّ الذی توخّاه فيه الشاعر،و بهذه الدلالة الثنائيّة التخليطيّةً بين النحو و الموسيقی ارتقی الطائیّ بدلالة جملته الثانية«ماتراها» عن مجرّدكونها توكيداً لفظيّاً للجملة الأولی إلی كونها جملة مكرّرة لإفادة ذلک التعجيزو العدول المضمونیّ التقابلیّ عن الحثّ و التشويق إلی الكَفّ والتخييب، و سائر الدلالات الراقية التی تمّت الإشارة إليها، والتی كان لايوحی بها إلاّ النبرُ و تنغيمُ الجُمل.

۲-۲- **مستوی الصّرف**: (morphology)؛ وهو المستوی الذی يدرس الصيغة اللغوية و التغييرات و التطوّرات التی تعترض بنيتها و أثرهذه الصيغة فی دلالة الكلمات، و يدرس كذلک الأثر الذی تحدثه زيادة بعض الوحدات الصرفيّة فی أصل بنية الكلمة، مثل اللواحق

التصريفيّة (inflectional ending) كعلامات الجمع و ياء النّسب و... وكذلک السـوابق التصريفيّة كأحرف المضارعة و همزة التعدية وميم المفعول و...؛وهذه الإضافات والتغييرات التى تطرأ على صيغة الكلمة و تحوّلها إلى صيغ أخرى، تكون لها دلالاتها الخاصّة بها، وهى التى تشاركُ فى الدلالة ويتأثّرالمعنى باختلافها و مقدارالزيادة فى الكلمة، كما أنّ الأذن تسمع كلمة«اثّاقلتم» فى قوله تعالى فى سورة التوبة الآيه: ۳۸*يا أيّهاالذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروافى سبيل اللّه اثـّاقلتم إلى الأرض*فيتصّورخيال ذلک الجسم المتثاقل،يرفعه الرافعون فى جُهد، فيسقط من أيديهم فى ثقل ،إنّ فى هذه الكلمة طنّاً بل أطناناً من الأثقال، ولو أنک قلت «تثاقلتم» بدلها، لخفّ الجِرس ولضاع الأثرالمنشود و توارَت الصورة المطلوبة التى رسمها هذا اللفظ واستقلّ برسمها(قطب ،۱۹۹۰ :۴۰)؛،وهذا انزياحٌ منه سبحانه وتعالى فى مادّة الصرف، ولم يعمِد سبحانه إلى مثل هذا الانزياح الصرفىّ و العدول عن أصل الصيغة إلاّ لخلق هذاالمعنى الجديدمن الكَسَل والتراجع القتالىّ_والله أعلم_؛ و معنى«اثاقلتم» أى: تباطأتم و تقاعستم ،وضُمّن معنى الميل و الإخلاد فعُدّى بإلى (الزمخشرى، ۲۰۰۸ ، ج۲: ۲۰۳) ؛ وهكذا نرى بوضوح مدى تأثير هذه الصيغة الصرفية و التغييرالذى طرأ على أصل صيغتها فى باب التفاعل فى خلق معنًى جديدٍلم تكن لتفيده اللفظة إن كانت على وضعها السابق. فلم تتمّ كلّ هذه التحولات الصرفيّة – الصِيَغيّة الّا لتجعل الكلمة صالحة لقبول معنى جديد و إفادةٍ جديدة. وهذا من محصول الدلالة الصرفية هذه، والتى سنتحدّث عنه.

وأمّا أمثلة هذا الباب :

يقول فى مستهّل قصيدته فى فتح عمورية ، مفتتحاً كلامه :

السيف أصدق أنباءً من الكتب فى حَدّه الحَدّ بين الجدّ و اللّـعِبِ

(الخطيب التبريزى، د.ت: ۴۰)

والذى يستلفت النظرو يثير ُالاهتمام فى هذا البيت –من المنظور الصرفى و دلالاته – و الذى لم يأت به أحدٌ من الشراح و الباحثين على ذكر منه ولاأشـارَإليه أحدٌ من الدارسين لشعرأبى تمام، هو أنّه قد جاء بلفظ«الكتب» جمعاً ولكّنّه أطلق لف«السيف» مُفرداً،فقال : السيف أصدق أنباءً من الكتبِ، لاالكتاب؛ ولم يقل السيوف كذلک، فماوجهُ هذه دلالياً؟لايمكن تعليل وجه الدلّالة فَى ذلک إلّا من المنظورالصّرفى والمساهمة التى تُبديها فى تحسين وجه المعنى، إذيبدوأنه لم يأتِ بلفظ السيف منفردًا ولابلفظ الكتاب مجموعاً إلّا ليُفهمَنا أنّ السيف الواحد_بحقيقة جنسه_وهى حقيقة واحدة يكفى للغلبة على جمّ غفير من كتب المنجمين و الفلكييّن الذين رأوا أن الفتح لايقع إلّا فى وقت إدراک التين والعنب،

ویکفی کذلک السیفُ وحیداً لاطلاق کلمــة الفصل و إبطال ما فی کتبهم العدیدة من تنبؤاتٍ و تکهّنات بشأن تحکیم الأبراج الثابته و المنقلبة فی طوالع الناس و الأحداث و...وأراد بذلک أن یُتحِفنا –فضلاً عن هذا بفائدة أخری وهی أن السیف لما کانت حقیقتُه فی القطع والمضاء و تبیین الحق واحدةً، لم یَحتَج أَن یکون أعداداًکثیرةً، وإن کانت هناک سیوف کثیرةٌ تحارب وتسعی لتبیین الحقّ، الّاأنها جمیعًا تتوحّد تحت ظلال حقیقة السیف الواحدة، وهی حقیقة الضرب بالحق و الصرامة فی تعیین الحدّ الفاصل بین الحقّ و الباطل، ولکّن کتب المنجمین لمّا کانت مرتبّة ًعلی أُسُسٍ من الخرافة و المزاعم و الأقوال المتذبذبة، لم تکن آراؤهم فیها واحدة فکانوا فیها یختلفون، ولذلک تعدّدت کتبهم و لم تستقرَّعلی رأی واحدٍ، ومن هذاالجمع و ذاک الانفراد نفهم بجلاء کون السیف ذا أحقیة فی جلاءالشک والریب، وکون الکتب رغم کثرتها ذات اضطراب وتزلزل فی صدق مزاعمها وصحّة الاستناد الیها، وهذه دلالة حسنة بهذا الجمع و ذلک الانفرادعلی هذا المعنی المختبئ، والدلالة الصرفیة الثانیة التی فیه –و هی محور نقاش طویل بین بعض شرّاحه –هی قوله فی إطلاق تمییزالنسبة مجموعًا فی قوله«أنباءً» و إن کان بعض الباحثین من أمثال الدکتور«منیرسلطان» قد رجّح قراءة «إنباءً» بالکسر علی روایة الفتح بقوله:وأنا أفضّل قراءة«إنباءً» علی«أنباءً؛ فالإنباء فیه استعدادٌ وقصدٌ وتعلیم و تشخیصٌ وتأدیب، ما لیس فی«أنباء» (سلطان ،۲۰۰۵: ۲۰۹)؛ إلاّأن المسألة تبدو علی خلاف ذلک فیما یبدو للباحث علی ما سیُبیّن فیما یلی؛فقد قال فیه المعرّی:وقوله: «أصدقأنباءً» کلام قد دخله ترجیح وهومن مواطن التمییز، وإذا کان الممِّیزلیس من نفس الممیـَّز جاز أن یقع واحدًاو جمعاً، مثل قوله [هذا]، ولوکان فی غیر الشعر لجازأن یُقال «نبأ» و کذلک: أخوک أخدمُ الناس عبدًا، ألاتری أن العبدَ غیرُ الأخ؟ فإن قلت: أخوک أعظم الناس رأساً،امتنع أن یکون الجمع فی موضع الممّیزالواحد؛ ثمّ یقول ابن المستوفی فی کلام المعرّی هذا: إنّما امتنع ذلک لأنّه لیس له!إلاّرأس واحد(الخطیب التبریزی،د.ت:۴۰)؛ وظاهرکلام ابن المستوفی یفید بأن التمییز و إن کان من نفس الممیّز،یجوزأن یکون جمعاًفیقال مثلاً: زیدٌأطولُ الناس أصابعَ، و إنّما امتنع الجمع فی مثال أبی العلاء لأنّ الانسان لایکون له الّا رأس واحد؛ وأمّا فضلاً عن هذا کلّه، وخلافاً لماجاءفی کتاب الدکتور منیر سلطان فی ترجیح روایة الانـفراد بالکسر«إنباءً» علی روایة الجمع بالفتح«أنباءً» ، فإنّ للباحث رُؤیة أُخری إلی کون هذا التمییز مجموعاً و هی رؤیة صرفیّة ولها إفادة ٌغیرمایفیده الممیِّزالمفرد، وهوعلی شاکـلة قوله تعالی فی سورة الأعراف المبارکة الآیــة ۱۶۰حیث یقول جلّ وعلا: وقطعناهم اثنتی عشرة أسباطاً أمماً﴿،حیث جاءبممیّزالعدد المرکب مجموعاً، و وجهه أن یکون مفرداً، فهّلاّ قیل اثنی عشرسبطا؟ فقال فیه الزمخشری: قلت: لو قیل ذلک لم یکن تحقیقاً للغرض، لأن المراد: و قطعناهم اثنتی عشرة قبیلة، وکلّ

قبيلة أسباطٌ لاسبطٌ، فوضع أسباطاً موضع قبيلة، والأسباط: أولاد الولد، جمعُ سبطٍ و كانـوا اثنتىً عشرة قبيـلة من اثنى عشرولداً من ولديعقوب عليه السلام(الزمخشرى ،۲۰۰۸ : ۱۲۶) ؛ فوجه مجيئ التمييز فى بيت أبى تمام مجموعاً - على ما أراه من المنظور الدّلالى الصرفى – هوأن يكون تتميماً للمعنى الذى أشرنا إليه سابقاً فى وجه إفراد السيف وجمع الكتب، إذ لو كان يقول: أصدق نبأ، لكان تمييزاً عاديّاً مألوفاً لايفيدُ غرضاً إضافيّاً، ولكنّه لمّاعدل عنه وجاء به مجموعاً أراد أن يقول إن السيف لديـه أخبارٌ كثيرة و أنباءٌ متواتراتٌ ممّا لا يُعدُّ ولا يُحصى و هى رغم كثرتها أصدق ممّا لدى كتب المنجمين من الأ قاويل الزائفة و الأخبار الباطلة ، فأخبار السيف –و ليس يُنبئ بخبرٍ واحدٍ بل أخبارٌ كثيرة –رغم كثرتها، كلها جيّدة صحيحةالاستناد ، بخلاف أخبار الكتب التىً عادة ما تخالطها الرّداءة و التلفيق ، و هـذا مما أستفيده من وجه هذا العدول للصيغة الصرفية لكلمة وإحلال المجموع محلّ المفرد، فلم يكن مُنزاحاً و لم يُرد تَخطّياً لقواعد النحـو و لا الصّرف إلاّليبلّغنا هذا المعنى اللطيف الذى قد لا يكون اللفظ المفرد يفيده، وبهذا يُرَدّ ُعلى مقال الدكتور سلطـان فى ترجيحه «الإنباء» بالإفـراد على «الأنباء» مجموعاً، لأنّه لم يـأخذ بالحسبان الايحاءَ الصرفىّ الذى تأتى به الكلمة إن كانت مجموعة، فهذاما يُنظرفيه منه.

و يقول كذلک فى وصف حريق عمورية وفتحِهامادحاً إسحاق محمّد بن هرون الرشيد المعتصم باللّه :

رمى بک اللّهُ بُرجَيها فهدّمَها ولورَمَى بک غيرُاللّه لم يُصِب

(الخطيب التبريزى ، د.ت :۵۹)

والشاهدا الذى نبحث عنه فى هذا البيت، ليكون آيةً بلاغيّةً على الاستخدام الآليّاتى لأحد موازين الصّرف هو قوله فى«برجيها» حيث جاء بها مثنّاةً ولم يوضّح لنا التبريزى –على ماقاله الدكتور منيرسلطان :«ما المقصود بالبُرجَين؟هل كان لعمورية برجان؟ أم أنّ أنقرة وعمورية هما بـُرجا الروم المنيعان؟ ثمّ نراه يعيد الضميرفى« هدّم» على المفردة المؤنثة،أهى مدينة عمورية ؟ أم أنه يَقصِد هدم البرجين برجاً برجاً على تأنيث البرج ؟لا أدرى» (منيرسلطان ،۲۰۰۵ : ۲۸۶)؛ و أقول إننى أرى فى هـذا اللفظ دلالةً صرفيّة أخرى جاءت لزيادة العبارة رونقاً فى البـلاغة و تماماً للمعنى، وهوأن هذه التثنية–على ما يظهرعندى _لم تتأتّ إلاّ للدّلالة على التكثير و التعديد كما هو شـائع مُستساغ فى كلام العرب، ومنها سُمِعت مصـادرُ مثنّـاةً نحو :«لبّيک وسَعديک و حَنانيک و..»، و هى مثنّاة يُرادبها التكثيرلاحقيقة التثنية (الغلاييني،۲۰۰۶ :۴۳۱)؛ فيحسُن تعليل التثنية فى هذا الموضع للدلالة على هذا التكثير و التضعيف، لأن عمورية ليست بوحدها _ بل إن كلّ أرضٍ و بلاد_تتمتّع بحصون و

بروج كثيرة، لابرجٍ أوبرجين أو أكثر من ذلک بقليل فقط، و لذلک دلّ الطائى بلفظته المثناة هذه على كلّ قصور هذه الأرض و حصونها المنيعة التى هدّمها المعتصم و جعلها قاعاً صفصفاً، والذى يقوّى المعنى فى ذلک، مجيئه بفعل«الهَدم» مضعّفاً من باب التفعيل بتكرير الـدّال، و هى لم تأت إلاّ لزيادة التوكيد و المعنى، بزيادة أحرفٍ على المبنى، و بمثلها قال اللّه تعالى مرتين فى سورة يوسف _ عليه السلام _ :﴿ وقطّعن أيديَهنّ﴾ و *وغلّقت الأبواب﴾ الآيتين ۳۱ و۲۳؛ للدلالة على شدّة القطع و غلق الأبواب بشدّة و إحكام بيدامرأة العزيز، وإلّا لو لم يكن القطع والاغلاق ضاربَينِ فى الشدّة لَمَا جاء –سبحانهً –بفعلهما مضعّفاو لقال –تعالى-قَطَعَ و غَلَق بالتخفيف، والإتيانَ بأصل المادّة أولَى، ومثاله فى الثنية المراد بها التضعيف قوله تعالى فى سورة الملک الآية۴ ؛حيث يقول تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرّتين *إذ قال فيه الزمخشرى: معنى التثنية التكرير بكثرة، كقولک: لبيک وسعديک، تريد إجابات كثيرة بعضها فى أثربعض(الزمخشرى،۲۰۰۸،ج۴:۴۳۷)؛ فلا أرى الكلمة_حقيقةً _مسوقة على نحو المثنّى إلاّ للدلالة على شمولية هذا الخراب وانتشارهذا الدمار الذى لَحِقَ ببروجهم، وهذا ما لم يهتدِ إليه الدكتور سلطان، ولم يَرِد له ذكرٌ فى كتاب التبريزى، فهو جديرٌ بالانتباه.. وأمّا استخدام الضميرفى «هدّمها» مفرداً مؤنثاً، فتؤيّدُ بقوة القول الذى سبق، لأنّه– والحالة هذه– قد أعادالضميرعلى معنى مافى التثنية من جمع التكسير،أى: البـروج،وهو يعامل معاملة المفرد المؤنّث، كأنّه قال: رمى بک اللّهُ بروجَها الكثيرة فهدّمها، وإلاّ لما كان لتأنيث الضمير المتـصل بالفعل وجهٌ، و بهذه الإعادة التأنيثـيّة للضمير يتـحقق ما بيّنا من وجه دلالـة «البُرجَين» مثنّاة.

۲–۳– **مستوى النحوأوالتركيب:**(syntax) ؛ وهوالذى يختصّ بتنظيم الكلمات فى قالب جُملٍ أو مجموعات كلاميّة، و يبين النحوكذلک وظائف الكلمات فى الجمل ، الأثر الدلالى لاختلافِ موقع الكلمة فى تركيبين مختلفين، و كذلک اختلاف الكلمة فى تركيبين، نحو : «ضرب محمدٌ عليّا»،«وضرب عليّاً محمّدٌ»، و مثل:«نجح محمّد» و «رسب محمّد»؛ فاختلاف ترتيب الكلمة واختلاف الكلمتين يُخلّفان أثرا فى دلالة الجملة؛ كما يقوم النحوبتعيين الفاعل فى الجملة بوضع مفرداتها مرتبة فى مثل: «ضربَ موسى عيسى» ، حيث لا توجد قرينة معنويّة ولا لفظية تعين الفاعل، فاستوجب هذا وضع المفردات فى ترتيبها المعهود من قواعد :الفعل ثم الفاعل ثم المفعول، لئلا يلتبس المعنى، وكذلک قول القائل : «ما أحسن زيد» و لم يُبن الاعراب فى ذلک، لما علمنا غرضه منه، إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه، أويريد الاستفهام عن أى شيءٍ منه أحسن، و يحتمل أن يريد به الإخبار بنفى الإحسان عنه، ولـو بيّن الإعراب فى ذلک فـقال: «ماأحسن زيداً»، و «ماأحسنُ زيدٍ»، و«ماأحسن زيدٌ» عَلِمنا غرضه و فَهِمنا مغزى كلامه، ولا نفردكلّ قِسم من هذه الأقسام

الثلاثةبمايُعرف به من الاعراب، فوجب حينئذٍ بذلک معرفة النحو، إذا کان ضابطاً لمعانی الکلام، حافظاً لها من الاختلاف.(ابن الأثير ،۱۹۹۰ :۳۰).

وأمّا أمثلة هذاالباب فهی کما يلی:

يقول فی بائيّته الشهيرة فی فتح عموريّة ووصفه لجودة أرضها و کيفيّة تصويرها لهذه الجودة وبيان فضلها علی سائر المکان،حيث يقول فيه:

حتّی إذا مخض اللّه السنين لها   مخضَ البخيلة کانت زبدة الحِقَبِ

(خطيب تبريزی، د.ت: ۴۹)

وهذا من أبدع استعاراته و أقصاها فکراً،و کلّ هذه الغرابة و التعقيد لم يتأتّ إلّا لأن الفکرة التی يريد أن يوصلها للمخاطب هی أيضاً فکرة عميقة و أصيلة عند الشاعر و ذاتُ غرابة و إعجاب لديه، و لذلک استخدم للتعبير عنها و اختزن فی بيته للدلالة عليها، طائفة ًمن الأساليب اللغويّة والبيانيّة الّتی تيسّرت له، فی حوزة المؤثّرات النحويّة والمعجميّة، إذإنّ فيه مؤشـّرتين نحوّيتين وهـمااللـّتان تدرسان تحت إطـار المســتوی النـحوی (syntax) و مؤشرة لغوّيةً واحدةً–علی ما يبدولی–وهی التی تُتناول بالبحث فی مضمار المستوی المُعجمی أو مستوی المفردات و إيحاء اتها(lexicography)والتی سنأتی علی ذکرهافی قسم الدراسات المعجميّة من کلامنا.وأما إبداعه فی المستوی النحوی فهوقوله فی استخدام «إذا» أداة للشرط فی هذاالموضع بدلاً من نظيراتها ، و کذا قوله فی استخدام المفعول المطلق المبيّن للنوع فی قوله«مخض البخيلة»؛وأخيراً استخدامه لجمع التکسير ذی الکثرة بدل القلّة فی قوله«حِقب»، حيث لم يقل«أحقاب» علی القّلة ، و فی کلّ منها لنا أحاديث،سنأتی علی ذکرها بالترتيب لتکون فاتحة للباب فی تحليل النماذج الأصليّة. و أمّا تحليل البيت — آليّاتيّانحويّاً — فهی أن هذه الأرض برأيه هی من أخصب الأرض و أشرفها،بل هی أشرفها و أجلّها قدراً عنده،ولذلک جاء بهذا التشبيه الغريب والبعدالاستعاری المعجب، لينقل الينا بکثافة شديدة بُعدَ شرف هذاالمکان الذی يتحدّث عنه،حيث شبّه فيه السنين المتماديه والقرونً المتطاولة علی مرّ الدهور، بلبن يُمخَض، لکن ليس مخضاً طبيعيّا مألوفاً، بل إن صاحبته تمخَضُه وتستمرّفی مخضه، حتیً إذا بلغت غاية المخض و أکملت الخضّ، حصلت علی کلّ ما يحتويها هذا اللبن من الزّبدة، و ليست هذه الزبـدة الخالصة المستخلصة سوی هذه الأرض التی يتحدّث عنها فی بيته هذا و ما سَلَفه من أبياتٍ أُخَرَ،إذ هی عصارة أماکن الأرض وأجمل بقاعها، وقد اختبراللّه تعالی أماکن الأرض علی مرّالعصور و محّصها تمحيصاً شديداً حتی استخرج من بطن هذه الدهور هذا المکان الشريف ذا النُّبل، کماأنّ الزبدة المستحصلة فی التشبيه تکون حصيلة جهدالماخضة غاية جُهدٍ،فقد بلغ الطائِی بتشبيهه هذا —غاية الفخامه

فی بيان هذا المعنی، ولكنّه لم يكتفِ بهذا الوجه الاستعاری المعجب فحسبُ، بل مال إلی جانبه إلی استخدام المفعول المطلق و تقييدالمصدرالمستعار بتقييدٍ حسنٍ من باب المفعول المطلق المبيّن للنّوع و هو قوله فی«مخض البخيلة»، اذلو قال بدله: مخضاًشديداً أومخضا كثيراً أو مستمّراً أو مخض الماخضة أو غيرها ، لما اكتملت الاستعارة و لا بلغت أقاصيها فی القوة و شدة التأثير ، إذ يعلم –جيّداً – كلّ من عاش مع العشائر أو قضی فترة من عمره بينهم، أن المرأة العشائريّة حريصة جدّاعلی تكثيف المخض و استخلاص كلّ الزبدة الموجودة فی اللبن، فتـُو اصِلُ عملها حتی لا تـُبقِیَ منها شيئاً ولاتذر، و بهذا الأسلوب النحوی الذی اختاره لبيان هذا المعنی – أعنی المفعول المطلق بالإضافة –أكسَبَ بيته جزا لة وفخامة تركيب فريد تين لم تكونا تتواجدان فی البيت إذ لو كان مسُوقاًعلی نحوآخرَمن أساليب الأداء فی المفعول المطلق، و بإضافة المصدر هذا إلی البخيلة قد فعل كلّ ما شاء من إبداعٍ فی هذا الباب. وأمّا المؤثرة النحوية الثانية لديه فهی استخدام«إذا» التی هی للشرط الكثيرِ الوقوع ، والأصل فيهاأن يكون الشرطُ مقطوعاًبوقوعه كما تقول:«إذا زالت الشمسُ آتيکَ» وغَلَب لفظ الماضی مع«إذا» لكونه أقربَ إلی القطع بالوقوع نظراً إلی اللفظ (الخطيب القزوينی،۲۰۰۸: ۶۹)؛ قال اللّه تعالی: فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لناهذه وإن تُصِبهم سيّئة يطيّروابموسی ومن معه❊ {الأعراف:۱۳۱}؛حيث جَمَع «إذا» مع الحسنة بالفعل الماضی، لأنّ الحسنة منه تعالی حصولها مقطوع به ، و أتی فی جانب السيّئة ب«إن» التی لايكون فيها الشرط مقطوعاً بوقوعه ، لأن السيّئة نادرةٌ بالنسبة إلی الحسنة المطلقة، لذلک نُكّرت هی و عُرّفت الحسنة ، و أطلق الفعل مع «إن» مضارعاً للدلالة علی هذا الأمر، لأن المضارع ليس متحقّق الوقوع كما يكون فی الماضی،و هكذا شأن أبی تمام فی بيته باستخدام «إذا» بدل « إن» أو «لو» و إطلاق الفعل بعدها ماضيا للدلالة علی أمرين :أوّلهما أنّ اختبار اللّهِ سبحانه و تعالی لأماكن الدهر قد وقع كثيراً و أنّه تعالی قد فعل هذا التمحيص و الاختبار سنين عدداً ، و تفضيل هذا المكان علی سائره يكون نتيجة ابتلاءٍكثيرمكثف من عنده تعالی وهذامانفهمه من«إذا»و دلالتها علی الكثرة و الشياع فی الوقوع ، و أمّا الأمر الثانی فهو أنّ هذا الأمر محتوم و أنّ هذا الرأی الذی أصدره بالنسبة إلی هذا المكان ثابت متحقّق، و هذا هو الذی يُفهم من إطلاق الفعلِ ماضيا مع «إذا"، لأنّ الماضی قد حَدَث بالفعل كما مرّ.

وأخيراً لدينامَلاحظة علی بيته، وهو أنّه لو استخدم بـدلا لتركيب الإضافی«مخضَ البخيلة» تركيب«مخضاً بخيلاً» علی وجهه الوصفی و صَحَّحَ معه وزن البيت وإيقاعه العروضَی، لكانت العبارة أرقی دلالةً وأدلّ مقاماً فی تأدية المعنی المقصود،لأن المخضَ لووُصِفَ نفسُه بالبخل فقيلَ: مخضاً بخيلاً لانتقلَت صفةُ البخل من الماخضة إلی المخض نفسه،وكان المعنی أن تواصَلَت عملية الخضِّ آلياً، واستمَرَّ الوطبُ تلقائياً فی حركته وما

توقّف عن الحركة والارتجاج،لأنّه_والحالة هذه_حريصٌ بنفسه على تكثيف الخضّ و مواصلة المَخض، سواءٌأكانت هناک ماخضة أم لم تكن، فيتحرّک تلقائيّاًاو هذا ماكنانفهمه من وجه العبارة لو كان الطائى قد عَدّى صفة البخل من البخيلة إلى المخض نفسه فقال :«مخضاً شديداً»، لكن بتعديل الوزن على أىّ وجهٍ كما قلنا!

يقول فى قصيدة عمورية كذلک،وفى وصف حريقها :

ضوءٌ من الناروالظلـماءُ عاكفة   وظلمة من دخانٍ فى ضُحىً شَحِبِ

(الخَطيب التبريزى،جَ١: ٥۴)

وأمّا ما يطالعنا فى هذا البيت من منظور دلالات النحو و آليّاته فهو ما نراه فى وجوب حذفٍ للخبروإقامة الحال مُقامَه فى قولَيه فى شطرَى البيت«ضوء من الناروالظلماء عاكفةٌ »،و«ظلمة من دخانٍ فى ضحىً شحب»؛ ولم أرَ كذلک فى جميع كتب الشروح –قديماً وحديثاً –إشارة إلىٰ هذا الوجه الاعرابى الدلالى الذى بنى عليه كلامه فى هذا الموضع، و به تزدادُ عبارته رونقاً، و أسلوبه متانةً و رصانةَ سبکٍ، فأرى التعليل فى نحوهذا مثلماجاء فى كتب النحومن كون حذف الخبر وجوباً، وهو الموضع الذى يكون فيه المبتدأ مصدراً أو اسمَ تفضيل مضافا إلى مصدرصريح أومؤول، وبعد هما حال لاتصلح أن تكون خبراً لذلک المبتدأ، وإنما يصلح أن تسدّ مسدّه فى الدلالة عليه فى المعنى، كقولنا : «ضربى العبد مُسيئا» وكذا الحديث الشريف:«أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجدٌ»؛ والتقديرفيهما :ضربى العبد حاصل عند إساءته، وأقرب كون العبـد من ربـّه حاصل فى حال سجوده،ولافرق فى هذاأن تكون فيه الحال مفردةً أوجملةً كمامثـّلنا،وقداجتمعت الحالان فى قول الشاعر_مفردةً ومركّبةً :

خيراُقترابى من المولى حليفَ رضاً   و شرّ بُعدِىَ عنه وهو غضبان

فالحالفى الأمثلة المتقدّمه دالّة على الخبرالمحذوف_وهوحاصل أومافى تقديره_سادّة ٌمسدَّه (الغلايينى،٢٠٠۶ ،ج ٢ : ٣۵۴و٣۵۵)؛ فالمجال فى بيت الطائى _على مااُستنبط_نفس المجال والموقف نفسه، ولا يسوغ تعليل البيت على غيره من أوجه الدلالة الإعرابيّة،و تقديرالمعنى عليه: ضوء من النار حاصل أو مكوَّنٌ أو مستقِرّحال كون الظلام فاشياًمستتِـبّاً، يعنى أن هذه النيران التى أضرمتها هذه الحرب المدمّرة تخلق من شدّة اندلاعهانها رًاساطعاً مضيئا و الليل وظلامه مستقرّان لم ينقشعا بعدُ ! فنهارٌمن هذه النيران واقعٌ وإن كان الزمن ليلاً،وكذلک الأمرفى الشطرالثانى،فإن دخان هذه النيران المتكاثف وغبارها المتراكم الذى يغشَى الناسَ يخلق من شدّة كثافته – فى وسط الضحى الشحب ليلاًداجياًمدلهمّاً،فليلٌ مظلمٌ من كثافة هذه الأدخِنة ناتجٌ والموقف نهارٌ!وفى هذه الوِجهةِ الأعرابيّة والدلالة التى

تحملهامعها،إشارة قويّة متينة على حتميّة وقوع هذاالليل فی قلب النهار، وذاک النهارفی وسَطَ الظلام، وفيها كذلک زيـادة دُلالة على تثبيت الوقوع الذی قلناه، وشدّة الامتزاج والتـعانق الذی يكون بين النهاروالليل فیً موقفٍ زمنیّ واحدٍ، سواءٌ أكان الطائیّ نفسه على وعی بهذاالتوجيه النحوی – الإعرابی الدلالی أم لا.ولكن من أين نفهم هذه الحتميّة للوقوع ونفطِن لها؟فِطنتُنا لها ناتجة من وجه هذه الحال التی سدّت مسدّالخبر،لأن الخبرلوكان محذوفاًمدلولاًعليه بمعونة الحال لكان أشدّ وقعاًفی نفس السامع،لأن الخبروالحالة هذه قديكونُ الحصولَ المطلقَ الذی يترتّب على المبتدأإن ثبتَ حصوله.فحينمانقول«ضربی العبدَ مسيئاً»و أعرضنا عن التصريح بلفظ الخبرقد اعتبرنا الخبر(الذی هو الحصول أوالوقوع) مسيطراًعلىأجواء الكلام فطرحناهعن سياق العبارة،ثمّ إننابمبادرتناإلى لفظة«مسيئاَ» التی هی الجزاء المترتب على الضرب، أردناأن نسترعی انتباه السامع قبل ذكرالخبرإلى أهميّة الحال التی ستُصيبهاإن كان واقعاًعنه الضرب؛فإيلاءُ الأهميّة الأولى والقُصوى للحال بدل الخبرلهذاالأمر. ولأن العبارة على هذاالغرارتوحی_بلاشكّ عندی_بدلالة الشرط أويُشمّ منهارائحة الشرط. فلاشكّ بأن تقديرالعبارة «ضربی العبدَمسيئاً» يكون ضربی العبدحاصلٌ إن كان مسيئاً!فحتميّة ترتّب الجزاء على الشرط تُفهم من هذاالشرط الذی أُشربَ الكلامُ رائحتَه.وكذلک الأمرلدی الطائی فی بيته،فالشرط المفهوم منه أن ضوءاًمن النارواقعٌ إن كانت الظلماء عاكفة و...؛فلمّاكان الليلُ وظلامه واقعَين حتماًشاهدَين لاندلاع هذه النيران،فانقشاعُ ظلمةهذاالليل بسبب الضوء الناتج عنهامتحتّمٌ يقينیّ أيضاً،وهذاهووجه هذاالتحتّم الذی تحدثناعنه فی تشابک الليل والنهار.فمايبدولنافيه من منظورالتوظيف الآلياتی للنحو، للدلالة على معنیً جديدٍ مستحدث لايتمّ إلاّ بنحوهذا الاستخدام،و هذا هو الذی قلناه، ولانتصوّرأبلغ منه للدلالة على هذا البعد التصويری!

يقول فی القصيدة نفسها:

أبقيت جَدّ بنی الإسلام فی صَعَدٍ والمشركين ودارَالشرک فی صَبَبِ

(الخطيب التبريزی،ج۱: ۴۷)

والاستخدام النحوی الذی يعجبنی فيه منه هواستخدام فی«الظرفية والمجروربعدَه حالاًمن الجدّ»،وفيه لباقةٌ منه وذكاء،إذ لم يقل:أبقيت جدّ بنی الاسلام صاعداً،أوذاصعودٍ، بل جعل العظمة و الجدّ والتعالی فی ظرف الصعود وصَبّه فيه، ليُقيم بينهما تمازجاًواختلاطاًتامّاًفی شدّةالاتـّصاف،وفی هذه الظرفيّةمعنی الاستدراج والرّقّیّ سُلّماً بسُلّم،أی إن هذاالجَدّلايكون صاعداً متصّفا ًبالصعود فحسب،بل إنّه يكون_إن صحّ التعبير_ممزوجاً بالصعود مصطبغاًبأ صباغه،آخذا فی التعالی والشموخ شيئاًفشيئاً، فاستخدام فی«ههنايوحی بهذا المزج والخـلط الذی يكون بين الظرف والمظروف وعدم انفصالهماعن بعضٍ،وعلى مثل هذا_والله أعلم_

يُؤوَّل كثيـرٌمن قوله تعالى فى استخدام» فى«الظرفيّة بـدلَ أية آليّة أخرى نحويّة،منها قوله تعالى فى سورةالعصر المبـاركة»حيث يقول:«إن الانسان لفى خسر»؛أى إن الناس فى خسران من تجارتهم إلاّ الصالحين وحدَهم (الزمخشرى،٢٠٠٨،ج٤: ٦٠١)؛ فلم يقل تعالى:إنّ الانسان خاسِـرٌ، بل باستخدام أداة الظرفية هذه، جعله محصوراً فى دائرة الخسران،لامفرّله منه ولامَحيدا!ووسمه بالغبن و صَبَغَه بصبغه ليكون اتـّصافه بالخسران هذا أعلى رسوخاً فى وجوده_واللّه أعلم.

٤- **مستوى المفردات:** (voeabulary)؛وهو يختصّ بدراسة الكلمات المنفردة وإيحاءاتها و معرفة أصولهاوتطوّرها التاريخى و معناها الحاضروكيفيّة استعمالها،ويدخل تحت هذاالمستوى دراسة المعنى المُعجَمى أوالقاموسى، وعنوان المستوى المعجمى فى هذا الباب أعمّ وأشمل من مستوى المفردات،لأن المعجم يشمل البحث عن معانى المفردات أوالكلمات وتـوسّعت الدراسة فيه، فشَمِلت الأمثال والحكم والتراكيب الاصطلاحيّة والسياقيّة والمصطلحات العلميّة، إلاّأننا نعمِد فى هذا المجال إلى تحليل الكلمات المنفردة فقط، دون التراكيب التى تشكّل وحدة دلاليّة ذات معنًى يتعلّق بالعلاقة التى تربط بين أجزاء هذاالتركيب.وسنبحث عن مدى دلالة المفردات التى توحى بشىءٍ من المعنى والذى لايفيده نظيراتها،وسنأتى فى هذاالممّربنماذج من شعره لو عُوِّض فيها عن كلمةٍ بأخرى، لزالت دلالة الجملة المرمىّ إليها و هدفها المنشـود الذى تـوَخّاه الشاعر.

وأمّا من أمثلة هذا القسم فيمكننى أن آتيكم بالبيت التالى الذى يقوله فى جيش المعتصم عندما حلّوا بأرض عمورية وسبّبـوا لها ولأهاليها الإصلاحَ و انقشاعَ الظلام، وجعلوا أعـزّة أهلها_من أهل الروم_أذلّـة؛ فيقول فيه:

تَصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمام لها عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُب

(الخطيب التبريزى، ج١: ٥٥)

ومعناه:أى تكَشَّفَ الدهرو بـَرَزلها[لعمورية]كما تصرّح الغمام عن يوم طاهرعلى المسلمين الظافرين،جُنُـب على المظفور بهم المُغارعليهم(المرزوقى،١٩٨٧:١١٦)؛وقال أبو العلاء:يعنى«طاهر جنب» أن هذا اليوم كان ما فعل فيه حِلّا،لأن الغزوَ مندوبٌ إليه فهو طاهر من هـذا الوجه،و«جنب» لأنهم أخذوا السّبى فوَطِئوه، فاحتاجوا إلى الغسل (الخطيب التبريزى، د.ت :٥٥)؛ و أمّا فى تحليل معنى هذا البيت واللفظتين اللتين ورَدَتا فيه بلافاصل بينهما«طـاهر جنب» فيمكن التمسّك بماقاله الدكتور منير سلطان بهذا الصدد مضيفاً إليه نكتة أخرى قد تظهرلى محترما نظرهم جميعاً؛ فيقول الدكتورسلطان: «وأعتقد المسألة أبعدَمن ذلك، فالطّهرهناأى: تطهير عمورية من نجاسة الكفرولايتحقّق هذاالتطهير إلاّ بخوضِ

الجنابة المتمثلة فی القتل والقصف و الأسـر و الاستيلاءعلی نساء العدوّ، فالدماء التی لطّخت جسد المحارب العربی هی خليطٌ من دم الفرسان و دم العذاری، و هی رمز للبطش والقوّة الوحشية التی عومل بها هؤلاء الأعداء فی أنفسهم، و فی ممتلكاتهم، و فی حصونهم، وفی نسائهم، وما حدث لنسائهم أشد وطأة علی كرامتهم من استلابهم كلّ ما يملكون. فالمحارب المسلم تمنعه عقيدته وأخلاقه ومبادئه أن يقدم علی صنع شیءفی السِّلم، كان يصنعه فی الحرب، فكلّ ما يملكه الآخرون من أنفس وأموال وأعراض محرّم عليه الاقتراب منها، ولكنّها تتحوّل فی الحرب إلی غنائم و تصيرحلالاً طيّبا،بل تصير رمزا ً للنصر،ولذا فصل أبوتمام بين كلمتَی«طاهر» و «جنب» و لو وصل بينهما و قال «المحارب المسلم طاهرٌ و جنبٌ» لما استغرقت الطهارة كلّ حالات الجنابة وبالعكس، ويكون المحارب المسلم قدأقدم علی جنابة من دون دافع من طهارة، أی بلادافع من عقيدة، ويكون قدأثِم [فی هذه الحال]إثما كبيرا،فطهارة العقيده تُلزمه ً بأن يكون جنبا فيمايخصّ العدو،ولا يكون جُنـُبا فيمالايدخل فی إطارممتلكات الأعداء» (منير سلطان،۲۰۰۵ :۲۳۸)؛ وكلّ ما قاله الدكتور سلطان بهذا الصدد أراه صحيحاً مستقيما ، إلاّأننی أضفی عليه أنّ معنی الجنابة -وهی عدم الطهارة فی الشرع – قد انعكس مؤدّاه – فيما عندی – و تحوّل إلی عكس معناه،فتكون الطهارة أيضاً،بمعنی أن الجنابة التی تكون لغيرهم من الآدميّين نجاسةً و خبثاً ، تتحوّل عندهم –و حالتهم هذه فی الحرب –إلی أنبل حالات القداسة و الطّهر ، فهم بخلاف غيرهم طاهرون حتّی فی حالات جنابتهم،لأن هذه الجنابة قد انحدرت من أصل الطهارة فی الدفاع عن عقيدة ونضال مقدس فی مسير قضيّة،فنشأت وبزغت هذه الجنابة من مَنبت طُهر،فلا بدأن تكون هی أيضاًطاهرة ً متبركـّة ً بأصل نبعها،وأری الطائی قدأراد بهذا المزج والـدمج بين الصفتين- من دون حائل بينهما-أن يقول إنهم لا جنابة لهم أصلاًولا خبث، فهم- خلافاً لمن سواهم من الناس_ يحظـَون بصنفين مختلفين من الطهارة، طهارة يتمتع بها كلّ ذی طُهر،وأخری تتحول لديهم طهارة، إلاّأنها لغيرهم لازالت خبثاً و نجاسة! فأراه من الناحية اللغويه قد أقام مرادفة ً تامّة ً بين لفظين متضادّين وهذامن صُنعه هو،إذ أحْدَثَ –علی ماأری وأسمّی«مُعاكسة معنويّة» لمؤدَّی لفظة «الجُنب الدلالی،وجعل التضادّ الذی بينهماترادفاً،علی نحـو ما يمكـّننی أن أسمّيه بـ» التضادّالترادفی أو«التضادّالمُرادَف»، وجعل اللفظة بواسطته تتواكَب مع ما قبلها من دلالة الطّـُهروالبراءة،ويقوّی تصرّفه هذابمدلول الكلمة أنه قدأزال العطف بين الصفتين كماقال الدكتورسلطان وهی(إزالة العطف)من آليّات النحو و إمكانياته، و بهايكون مزجٌ فی البيت بين المستويين النحوی والمعجمی، و مؤداهاأنهم متصفون فی آنٍ واحدبمختلف أنواع الطهارة، وليس أن يكون لهم طهارة حيناً، فتأتيهم الطهارات الأخری فیً الأحيان الأخری، وهذا المعنی إنمايُفهم بإزالة هذاالعطف بين الصفتين وإلصاقهما ببعض لتأدية

ذلک المعنى.وهذاماهداه اليه المعنى، فتصَرّفَ بمدلول الكلمات وجعله عكساً،وهذه خاصيّة أخرى للعلامات اللغوية(الكلمات)- كما يقول الدكتورأبوزيـد- نـابعة من خاصيّتها السيمانطيقية، و هى قدرتها على التحوّل على مستوى المدلول لكى يصـبح بدوره علامة من نوع آخرتشير إلى مدلول آخرَفيما يُعرف بـ«التحوّل الدلالى» فى أنماط المجاز المختلفة؛ وهذا التحوّل الدلالى لايَحدُث فى العلامة اللغوية فى حالةإفرادها،ولكنه يتحقق من خلال التركيب الذى يُكسبُ العلامة[الكلمة]دلالة لاتكون لهافى حالة إفرادها. (أبوزيد،٢٠٠٨: ٨٦و٨٧)؛ و هذامافعله أبوتمام فى موقعه هـذا فى وجه معنى الجنابة التعاكُسىّ؛ و أراه ناجحًا فى التصرّف الآلياتىّ الوظيـفىّ هذا بمدلول كلمة ما.

ويقول فى قصيدة عمورية فى تصويرمكان الفتح وجودة أرضه وفضله على سائر المكان:

حتّى إذا مخض اللّه السنين لها　　مخضَ البخيلة كانت زبدة الحِقَبِ

(الديوان،ج١: ٤٩)

والنكتة اللافتة التى نراهافى هذا البيت لغويّاهى أنه قدجاء بلفظة «الحِقبة» وقد جَمَعها على كثرة فقال «الحِقَب» ،ولم يستعمل اللفظ الذى يكون جمعه على«أحقاب» على قلّة وهو«الحُقُب» بضمّتين،ويكَون هوالواردالمستعمل فى القرآن الكريم فى سورة النبأ المباركة إذ يقول تعالى:﴿لابثين فيها أحقابا﴾ {النبأ:٢٣}؛ولكن لماذا؟وماوجه هذا العدول من لفظة معجميّة إلى نظيرته التى تتقارب عليهامعنىً؟ السرّفى أنّ«الحُقُبَ» يكون أقلّ من الحقبة دلالة زمنيّة وتوسّعاً فى المساحة الزمنيّة، وذلک لأنه هو الدهر أو السنّة أو هو ثمانون سنة و قيل أكثر من ذلک، والحقب فى قوله تعالى﴿أوأمضى حُقُباً﴾[الكهف/٦٠]قيل معناه سنة،وقيل معناه سنين، والحُقب على تفسيرثعلب يكون أقلّ من ثمانين سنة (ابن منظور، ٢٠٠٥:٨٨٨)؛ و أمّا«الحِقبة» فهى السنة أيضاً أو هى الفترة من الدهرلاوقت لها (ابن منظور، ٢٠٠٥: ٨٨٨)؛ إذن الطّول والابهام اللّذان فى «الحقبة» أكثرمنهما فى «الحقب»، لأنّهاأجلٌ غير مسمّىً وأمدٌغيرمعلوم بالنسبة إليه،ولهذا فضلّها على«حُقُب»؛ ثم لم يكتفِ باستخدام الحقبة فحسب،بل عمدإلى جمعهاجمع تكسير بالكثرة،ولهذاأراه فى تفضيله«الحِقَب» على «أحقاب» مُصيباً من ناحيتين: أُولاهما من ناحية زيادته فى الإبهام و اختيار الزمن الذى هو غير محدّد للدلالة على هذا الإبهام و هوضاربٌ فى اتساعٍ أكثر زمنيّاً، والثانية فى جمعها تلک اللفظةَ جمع كثرة كما قلنا، فصارالزمانُ طولاًفى إبهامٍ، وهذا- على مايبدوللباحث- أدلّ من غيره فى تصويرضبابيّة زمانٍ كهذا!فمزيـّةعبارته هذه ضِعفان بالنسبة للاختيارالسابق.

النتيجة

انتهی حديثنا فی تحليل النماذج و دراستها درساً آلياتيا –سيمنتيكيّا، والنتيجة التی نريد أن ننتهی إليهاو نُصدربواسطتها حكمًا محدّداً غيرَشامل علی ما صنعناه فی شعر أبی تمامٍ من دراسة و تحليل و استشفافٍ وظيفیّ- آلياتیّ، هی أنّنابعد درس بضعة من أبياته فی موقفنا هذاو ًالنظرات ًالأخری التی تمّ إلقاؤها علی شعره- من نفس هذاالمنظّور-نحوياًو معجميّاًو صوتيًاو تصريفيّاً، هدانا إلی أن نقول بشأنه إنّه- رغم وجودبعض الساقط والردیء فی شعره_إلّا أنّه فی معظم الأبيات التی صنعهاو ماضمنّها من آلياتٍ فی البلاغة و النحوو الموسيقی، و التی أُتيحَ لناأن ندرسها فی هذه المقالة كان ذا نجاحٍ فيهاو كان الوعیُ بالاستخدام الوظيفیّ قرينَه فی كثير من الأحيان، والدليل الذی نستدلّ به لصدور هذا الرأی واعتباره ذاوعیٍ بأنماطه الاستخداميّة هوإلمامُه الذی رأيناه منه فی الأبيات المدروسة فی كيفيّة استعانته بأدوات اللغة وإمكانياتها الدلاليّة فی مواطن تعبيره المختلفة، بحيث قداختار فی كلّ موقف-علی مارأينا- الوسيلة النحويّة أوالصرفيّة أو...التی كانت تبدوأقوی عنده من غيرهاعلی تصويرمشهده الشعریّ،فرأينامنه كيف إنه إذاأرادالسَعَة والانتشارلسخاءالممدوح ونَوَی الأريحية وانشراح الصدرفيه،استنصَرَالكلمة التی تكون لهاصفة الرخاوة والتفشی والانفتاح من باب صفات الحروف الأدائية،وهی كلمة«تهشّ» لتی تفيدُبأ حرُفها هذه وصفاتِهاتلک، مدی هذه الأريحية والانشراح لدی الممدوح فی فعل السخاء، ونظيره فی لفظَتَی«الرّتكان» ودلالتهاعلی الخفة والهزة والنشاط فی عدوالإبل بتعاقب الفتحات عليها، وهلمّ جرّافی باقی الأدوات التی استعان بهافی هذا المضمار لَلدلالة علی مضامينه الفكرية وخلق صوره الشعريّة. وكان هذاالوعی منه ينجلی لنا بوضوحٍ أكثرلوكان المجال أكثرا تساعاًو أخذنا أبياتاً أكثر من ديوانه بالدرس الآلياتیّ هكذا. فلم يكُن الحكم الذی أصدرناه بشأن شعره عامّاً شاملاً يستوعب جميع أطراف ديوانه و ماعَمِله فيه من إنتاج شعری، بل الحكم يختصّ بالأبيات التی تمّ استعراضها فی نصّ المقالة،ويمكن لنا الادّعاء بأنه يجوز تعميم دائرة البحث فی هذه الحوزة الدلالية إلی سائر أجزاء شعره و الحصول علی نفس النتيجة التی تمّ التوصّل إليها فی هذا البحث. ولكننا جئنافی هذا المجال الضيّق بهذا القدرالضئيل من أبياته واستعرضناها علی محكّ الدرس الدلاليّ لتكون النتيجة الحاصلة من ورائهاأنه(الطائی) كان هذا خُطّتَه و دَأبَه فی سائر أبيات ديوانه، والمتصفّح لأوراق ديوانه يُقرّ بعد كدّ وجهدٍ دلاليّ أنه قدسَعی سعيَه فی سبيل الإنتاج الشعریّ الدلالی الذی قدحَلّت فيه الآليّات المتوفّرة لديه محلّهامن مَدارج الكلام الوظيفيّة.فهووإن كان عنده شیء من السهو أو الشرودفی بعض محطّاته الدلاليّة، إلا أنه كان-أوأراه علی الأقلّ-ناجحاًذانجاح مقبولٍ فی خُطّته الدلالية- الآلياتية التی اتخذهاللتعبيرعن فكرته.

الهوامش

۱- خِرزٌأبيضُ يشبه الدّر.

۲- الخُرق وكذاالخُرُق بضمّتين الجهل أوالحُمق،أوالدَّهَش من الفزع.

المصادر و المراجع:

۱- القرآن الكريم.

۲- الآمدى،الحسين بن بشر بن يحيى.(۲۰۰۶). «**الموازنة بين أبى تمام و البحترى**»، ،تحقيق: السيد أحمدصقر،القاهرة، دارالمعارف، ط:۵.

۳- ابن الأثير،ضياءالدين.(۱۹۹۰). «**المثل السائر فى أدب الكاتب**»،تحقيق: محمّد محيى الدين عبد الحميد، بيروت –لبنان، المكتبة العصرية.

۴-ابن‌جنى،أبوالفتح عثمان.(۱۹۸۶) «**الخصائص**»، تحقيق: محمدعلى النجار،الهيئه المصريّة العامة للكتاب.

۵-أبوزيد،نصرحامد.(۲۰۰۸).«**إشكاليات القراءةوآليات التأويل**»، الدارالبيضاء- المغرب ،المركزالثقافى العربى، ط:۸.

۶- أنيس، إبراهيم.(۱۹۵۸).«**من أسرارااللغة**»،القاهرة: مكتبة الأنجلوالمصرية،ط:۷.

۷- الخطيب التبريزى،أبوزكريايحيى بن‌على.(د.ت). «**شرح ديوان أبى تمام**»،تحقيق: محمّد عبده عزام،القاهرة،دارالمعارف ، الطبعةالخامسة.

۸- الخطيب القزوينى، جلال الدين محمّد بن عبدالرحمن بن عمر.(۲۰۰۸).«**الإيضاح فى علوم البلاغة**»،بتحقيق وتعليق وفهرسة: غريد الشيخ محمّد، إيمان الشيخ محمّد، بيروت : ،دارالكتاب العربى.

۹- الرّازى، محمّد بن أبى بكر بن عبد القادر،(۲۰۰۶).«**مختارالصحاح:اعتنى بهاالأستاذ يوسف الشيخ محمّد**»، بيروت: المكتبة العصريّة.

۱۱- الزمخشرى، جارالله أبو القاسم محمود بن عمر .(۲۰۰۸).«**الكشاف**» ، ضبط و توثيق: أبى عبدالله الدانى بن منير آل زهوى ، بيروت: دارالكتاب العربى.

۱۲- الزمخشرى. (۲۰۰۲). «**أساس البلاغة**»، بيروت : دارإحياء التراث العربى،ط:۱.

۱۳- سلطان،منير.(۲۰۰۵).«**بديع‌التركيب فى شعر أبى تمام (الجمل والأسلوب)**»،منشأة المعارف بالإسكندريّة.

۱۴- الصولى،أبوبكر محمّد بن يحيى .(د.ت). «**أخبار أبى تمام**»، تحقيق الدكتور: محمّد عبده عزام و جماعة، بيروت: المكتب التجارى للطباعة والتوزيع و النشر.

۱۵-ضيف،شوقى.(۲۰۰۸). «**تاريخ الأدب العربى(العصر العباسى الأول)**»،القاهرة: دار المعارف،ط:۱۹.

۱۶–ضيف،شوقی.(د.ت).«**الفن و مذاهبه فی الشعر العربی**»، القاهرة: دارالمعارف،ط۱۳.

۱۷– الغلاييني، الشيخ مصطفی.(۲۰۰۶). «**جامع الدروس العربيّة**»، تحقيق و فهرسة: أحمد زهوة، بيروت: دارالكتاب العربی.

۱۸– عكاشة،محمود.(۲۰۰۵).«**التحليل اللغوی فی ضوء علم الدلالة**»،القاهرة: دارالنشر للجامعات،ط:۱.

۱۹– عمر،احمد مختار.(۱۹۹۸). «**علم الدلاله**»، القاهره:عالم الكتب،ط:۵.

۲۰–الفاخوری،حنّا.(۱۳۸۰ش). «**تاريخ الأدب العربی**»،طهران:منشورات توس،ط:۲.

۲۱–قطب، سيّد.(۱۹۹۰).«**النقد الأدبی؛أصوله و مناهجه**»، بيروت: دارالشروق، الطبعة الشرعيّة السادسة.

۲۲– المبرّد،أبو العباس محمّد بن يزيد.(د.ت). «**الكامل**»، تحقيق: محمّدأبوالفضل إبراهيم والسيّد شحاتة، القاهرة:دار نهضة .

۲۳– المرزوقی، أبوعلی أحمد بن محمّد بن الحسن .(۱۹۸۷). «**شرح مشكل أبيات أبی تمام المفردة**» ، دراسة و تحقيق: الدكتور خلف رشيد نعمان، بيروت:عالم الكتب -مكتبة النهضة العربيّة ،ط.۱:

۲۴– مروّة ، محمّد رضا .(۱۹۹۰). «**أبو تمّام(عصره-حياته-شعره)**»، بيروت: دارالكتب العلميّة، ط:۱.

۲۵– مصطفی، ابراهيم وآخرون .(۱۹۸۹).«**المعجم الوسيط**»،استانبول:دارالدعوة.

۲۶– ابن المعتز، عبدالله.(۱۹۴۵).«**البديع**»،تحقيق: محمّد عبد المنعم الخفاجی،مصر.

۲۷– معروف، يحيی.(۱۳۷۸ش).«العروض العربی البسيط»، كرمانشاه: منشورات سمت وجامعة الرّازی ، ط:۱.

۲۸– ابن منظورالإفريقی،أبوالفضل جمال الدين محمّد بن مكرم.(۲۰۰۵).«**لسان العرب**» ، مراجعةوتدقيق:د.يوسفالبقاعی وآخرون، بيروت:منشورات مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، ط:۱.

۲۹–موسوی‌بلدة،السيّدمحسن.(۱۳۶۷ش).«**حلیةالقرآن(المستوی۲)**»،طهران:منشورات مركز منظمة الإعلام الاسلامی للطباعة والنشر،ط:۲.

۳۰– نهر،هادی.(۲۰۰۷).«علم الدلالةالتطبيقی فی التراث العربی»، الأردن:الهاشمی،دارالأمل للنشروالتوزيع،ط:۱.

فصلنامه‌ی لسان مبین(پژوهش ادب عربی)
(علمی-پژوهشی)
سال سوم، دوره‌ی جدید، شماره‌ی پنجم، پاییز ۱۳۹۰

ابزارهای زبانی اندیشه های ابوتمام*
در پرتو سطوح چهارگانه علم دلالت

دکترحمید رضا میر حاجی
استادیار دانشگاه علامه طباطبایی
دکتر جلال مرامی
استادیار دانشگاه علامه طباطبایی
مالک عبدی
دانشجوی دکتری دانشگاه علامه طباطبایی

چکیده

أبوتمام طائی یکی ازشعرای عقل گرای دوره ی عباسی است که برای بیان محتواهای فکری خویش از ابزارهای زبانی دلالت گری سودجسته است که ما در این مقاله برآنیم، میزان توانمندی او را در فهم دلالتهای متفاوت زبان و قوام یافتگی سخن او را در نحوه‌ی استفاده ازاین ابزارهای زبانی، در چهار حوزه‌ی: سطوح آوایی زبان، مکانیزم‌های ساختاری و نحوی آن، نظامهای صرفی و پی ساخت کلمات و سطوح واژگانی آن بررسی نماییم، تا بدین واسطه به گوشه‌هایی از شیوه‌ی ابزارگرایانه‌ی این شاعراندیشه و در بیان مبانی فکری او پی ببریم؛ و بدانیم چگونه بعنوان مثال وقتی که این شاعر اراده‌ی معنای ابهام و پوشیدگی را در معنای مورد نظر نموده ،لفظی را اختیار کرده که به نسبت کلمه-ی مشابه خود از ابهام و مه آلودگی بیشتری در معنای مورد نظر برخوردار بوده، وآن کلمه‌ی «الحِقبة» بجای «الحُقـُب» است، که لفظ اولی طول و نامعلومی بیشـتری را در زمان برای شنونده متبـلور می سازد؛ ونیز آنجا که قصـد داشته حرکت سریع و خیزش تند و دَوَرانی شتران را درهنگام گام برداشتن و سلاستِ در دوندگی را درنزد آنان تصـویرکند، واژه‌ی «رَتکان»ی را اختیار نموده که به اقتضای پیکره‌ی آوایی خود و پی ساخت صرفی لفظش- بروزن فـَعَلان- و توالی فَتـَحات بر سه حرف ابتدایی، معنای نشاط و لرزندگی واهتزاز را درخیزش آن شتـر بخوبی نمایان می سازد؛ اینها در حوزه ی دلالتهای صرفی و آوایی زبان،واما در دیگر حوزه‌های دلالت محور زبان نیز- در نحو و در ساختهای صرفی کلمات - دراین رساله بدنبال دست یابی به سرنخ‌هایی ازسبک ابزار بنیان ابوتمام در حوزه‌های چهارگانه‌ی دلالتهای زبانی خواهیم بود.

واژگان کلیدی
معناشناسی، ابوتمام، شعر عربی، استفاده ی ابزار محور، شیوه های بیان.

---

* - تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۹۰/۰۲/۱۸ تاریخ پذیرش نهائی:۱۳۹۰/۰۶/۲۶
نشانی پست الکترونیکی نویسنده : Mirhaji-sayyed@ yahoo.com